الشافعي واضع علم اصول الفقه

للاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

— ٢ —

والمروى عن الشافعي : انه قال : انه حمل الى مكة وهو ابن سنتين من غزة أو عسقلان

وفى كتاب « معجم الادباء » لياقوت : وفى رواية ان الشافعي قال : ولدت باليمن فخافت امى على الضيعة فحملتنى الى مكة وانا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك . وتأول بعضهم قوله « باليمن » بارض اهلها وسكانها قبائل اليمن ، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها

قلت : وهذا عندى تأويل حسن ان صحت الرواية والا فلا شك انه ولد بغزة وانتقل الى عسقلان الى ان ترعرع ، ج ٦ ص ٣١٨

ويقول ابن حجر فى توالى التأسيس ص ٤٩ : « والذى يجمع الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان ، ولما بلغ سنتين حولته أمه الى الحجاز ودخلت به الى قومها وهم من أهل اليمن ، لانها كانت أزدية ، فنزلت عندهم ، فلما بلغ عشراً خافت على نسبه الشريف ان ينسى ويضيع فحولته الى مكة »

وليس من رأيي التوفيق بين الروايات المتضاربة قويها وضعيفها على هذا الوجه ، فتلك طريقة ليست من التمحيص التاريخى فى شيء ، بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند التى يرجحها ما يحف بها من القرائن والذى تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعي ولد بغزة ومات فيها ابوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبي عليه السلام . ثم حملته امه الى عسقلان وهى من غزة على فرسخين أو أقل . وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها . وكان يقال لها « عروس الشام » وفى كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسى المعروف بالبشارى : « ان خيرها دافق ، والعيش بها رافق »

وكل هذه الاعتبارات جديرة بأن تجعل الأيم الفقيرة تختارها سكنا لها ولطفلها اليتيم الغريب

فلما بلغ الطفل سنتين وترعرع وأصبح يحتمل السفر حملته أمه الى مكة ليتشأ بين قومه من قريش ، ولعلها كانت تريد أن تستعين على تكاليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوى القربى باعتباره مطلبيا (١)

على ان حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليرفه من عيشه فنشأ فى قلة من العيش وضيق حال . قال الرازى :

« وذكروا ان الشافعي رضى الله عنه كان فى اول الزمان فقيرا ، ولما سلموه الى المكتب ما كانوا يجدون أجرة المعلم ، وكان المعلم يقصر فى التعليم الا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعي رضى الله عنه يتلقف ذلك الكلام ، ثم اذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي رضى الله عنه يعلم الصبيان تلك الاشياء ، فنظر المعلم فرأى الشافعي رضى الله عنه يكفيه من أمر الصبيان

---

(١) ويظهر : أن أم الشافعي كانت ترى أن تنشئه على الاعتزاز بنسبه والشعور بقوميته ، وقد نشأ الشافعي غير خلو من هذه النزعة حتى لقد اتهم بالتشيع . ويقول صاحب الفهرست : وكان الشافعي شديدا في التشيع ، وذكر له رجل مسألة فأجاب فيها ، فقال له : خالفت علي بن أبي طالب (ص) فقال له : اثبت لى هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى الى قوله . وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال : لا أتكلم في مجلس بحضرة أحدهم وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل ص ٢٧٩

وذكر ابن حجر في رواية أن الشافعي كان يقول : علي بن أبي طالب ابن عمي وابن خالتي ، وأشار الشافعي بذلك الى أن أم جده الاعلى السائب بن عبيد « الشفاء » بنت الارقم بن هاشم بن عبد مناف وأمها « خالدة » بنت أسد بن هاشم اخت « فاطمة » بنت أسد والدة علي ، ففاطمة أم علي بن أبي طالب خالة أحدي جدات الشافعي ، فأطلق عليها خالته مجازا (ص) ٤٦

وفى كتاب الانتقاء لابن عبد البر : « قيل للشافعي ان فيك بعض التشيع قال وكيف ؟ قالوا ذلك لانك تظهر حب آل محمد ، فقال ياقوم ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين) وقال : (ان أولياني من عترتي المتقون) فاذا كان واجبا على أن أحب قرابتي وذوى رحمى اذا كانوا من المتقين أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كانوا من المتقين ، لانه كان يحب قرابته وابنه ، وله أبيات منها :

(ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان انى رافضى) ص ٩١

ونقل الرازى : أن رجلا قال لابن حنبل : يا أبا عبد الله أن يحيى بن معين رأيا عيبة بنسبان الشافعي الى التشيع فقال احمد : لا أدرى ما يقولان والله ما رأينا منه الا خيرا ثم قال لى حوله : اعلموا : أن الرجل من أهل العلم اذا منحه الله تعالى شيئا وحرم قرناءه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه وبئست هذه الخصلة فى أهل العلم . ص ٣٤

واذا صح أن الشافعي كان لا يخلو من تشيع فهو لم يكن مسرفا ولا متعصبا وليس أدل على ذلك من أن زوجته كانت عثمانية

أكثر من الاجرة التي يطمع بها منه ، فترك طلب الاجرة واستمرت هذه الاحوال حتى تعلم القرآن كله لسبع سنين » ص ١٥ و١٦ (١)

ويروى عن الشافعي : أنه كان يحدث عن طفولته فيقول : « وكانت نهمتي في شيئين : في الرمي ، وطلب العلم . فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة . وفي رواية من عشرة تسعة ، وسكت عن العلم ، فقال له بعض من كان يستمع اليه : أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي

ويروى عنه أيضا : أنه قال : كنت ألزم الرمي حتى كان الطيب يقول لي : « أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر » تاريخ بغداد ج ٦ ص ٥٩ ، ٦٠

ويظهر : أن حب الرماية لم ينزعه من بين جوانب الشافعي جلال السن وجلال الامامة

« عن المزني قال : كنت عند الشافعي فمر بهدف ، فاذا رجل يرمي بقوس عربية ، فوقف عليه الشافعي وكان حسن الرمي فأصاب سهاما ، فقال له الشافعي : أحسنت ، وبرك عليه ، قال لي : ما معك ؟ فقلت : ثلاثة دنانير ، فقال : « أعطه إياها واعذرني إذ لم يحضرني غيرها » — توالي التأسيس — ص ٦٧ (٢)

قال الشافعي : « لما ختمت القرآن دخلت المسجد اجالس العلماء وأحفظ الحديث والمسألة ، وكان منزلنا بمكة في شعب الخيف ، وكنت فقيرا بحيث ما أملك ما اشترى به القراطيس ، فكنت آخذ العظم أكتب فيه وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها » — الرازي ص ١٦ (يتبع)

(١) فكان الشافعي يجيد حفظ القرآن ويكثر من تلاوته وتدبره ، وروى عن الربيع أن الشافعي كان يختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختمة . وفي شهر رمضان ستين ختمة : ختمة بالليل وختمة بالنهار . الرازي ص ١٢٤

ويروى أنه كان يقرئ الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان حسن الصوت في القراءة . وأخرج ابن عدي من طريق احمد بن صالح قال : كان الشافعي اذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته . وأخرج الحاكم من طريق بحر بن نصير قال : كنا إذا أردنا أن نبكي قال لنا اذهبوا فوموا الى هذا الفتى المطلبي الذي يقرأ القرآن ، فاذا أتيناه استفتح القرآن حتى يتساقط الناس بين يديه ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته ، فاذا رأى ذلك أمسك .

وكان واسع العلم بالتفسير حتى قال يونس بن عبد الاعلى : كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل . وكان الشافعي يقول : نظرت بين دفتي المصحف فعرفت مراد الله تعالى من جميع ما فيه إلا حرفين أشكلا علي . قال الراوي : الاول نسيته ، والثاني قوله تعالى : « وقد خاب من دساها » قال قلت لم أجده في كلام العرب ، ثم قرأت لقائل ابن سليمان قال : أنه لغة السودان فان « دساها » أغراها . الرازي ص ١٢٤ ، ١٢٥ وابن حجر ص ٦٠ .

(٢) ويظهر ان الشافعي كان يعرف جياد الخيل ، ولعله كان من فرسانها . وفي كتاب « مفتاح السعادة » لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢ « روى عن الشافعي انه قال : رأيت على باب مالك كراعا من افراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنه ! فقال : هو هدية مني اليك يا أبا عبد الله قلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال : انا استحي من الله تعالى ان أطأ تربة فيها رسول الله صلعم بحافر دابة ، ولم ير مالك راكبا بالمدينة قط ج ٢ ص ٨٧

وكان الشافعي متأثرا في خلقه وفي خلقه بالرياضة البدنية التي شغف بها منذ الصغر ، فكان جسمه جسم الرياضيين وكان خلقه خلق الرياضيين : ذكر زين الدين عمر بن الوردي ان ابن الصلاح مدح الشافعي لبعض ملوك الشام فقال : كان رضي الله عنه وجزاه الخير طويل السائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق طويل القصب أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية حسن الصوت حسن السمت عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق مهيبا فصيحا من أدرب الناس لسانا اذا أخرج لسانه بلغ أرنبة أنفه ج ١ ص ٢١٥

ويظهر ان الشافعي كان لا يحب السمن ولا يحسن ظنه في أهله ويروى : انه كان يقول : ما أفلح سمين الا محمد بن الحسن . وتلك مقالة رجل رياضي .

ومن اخلاق الرياضيين العزة والاحتمال والقصد والبر والصيانة وقد كان الشافعي عزيزا صبورا مقتصدا خيرا

وروى عن الربيع أنه قال ، قال عبد الله بن عبد الحكم للشافعي اذا اردت ان تسكن البلد يعني مصر ، فليكن لك قوت سنة وجلس من السلطان تتعزز به ، فقال له الشافعي يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له . ولقد ولدت بغزة ورببت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط

ومما يتصل بذلك ما روى ان الربيع سئل كيف كان لباس الشافعي ؟ قال : كان مقتصدا فيه : يلبس الثياب الرقيعة من الكتان والقطن البغدادي ، وكان ربما لبس فلذوبة ليست مشرفة جدا ويلبس كثيرا الصامة والخف ، وكان لا يأتي عليه يوم لا يتصدق ، ويتصدق بالليل ولا سيما في رمضان ، ويتفقد الفقراء والضعفاء . ابن حجر ص ٦٧ ، ٦٨

وكان شيوخ مكة يصفون الشافعي من اول صغره بالذكاء والعقل والصيانة ، ويقولون لم نعرف له صغيرة . كتاب مرآة الجنان ج ٢ ص ٢١

ابيات للمنفلوطي

كان المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي يجلس في جمع من اصدقائه منهم : المرحوم حافظ ابراهيم وامام العبد والشيخ الكاظمي والشيخ منصور ، وكان هذا الشيخ من أشهر لاعبي الشطرنج لا يكاد يهزه أحد وكان مجلسهم في مقهى (كنكوت) (بحي الحسين)

فحدث يوما أن تغلب غلام في الرابعة عشرة من عمره على الشيخ منصور فكانت هذه الحادثة موضوع تنادر الجماعة مدة طويلة وقد قال كل منهم فيها شعرا فما قاله المنفلوطي هذه الأبيات :

وظبي سقيم الطرف حلو مهفهف * تميت وتحيي كيفما شاء عيناه
يداعب في الشطرنج كل ملاعب * فلا ينثني إلا وقد قتل الشاه
فوالله ما يدري الحروب وإنما * رماه بسهمي مقلتيه فأرداه